

عرفات شهيداً ...

عبد الرؤوف سنو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

ما هو الأشد إيلاًماً والأبلغ تأثيراً، إرهاب الأفراد أم إرهاب الدولة؟

نطرح هذا التساؤل المبدئي، ونحن نتجاوز الذكرى الثانية لأحداث 11 أيلول 2001 وتداعياتها، التي شكلت محطة مفصلية أساسية في المشهد السياسي العالمي. أحادية القطب السياسي المهيمن على مقدرات المجتمع الدولي وعلى توجهاته السياسية، والتأسيس لنظام العولمة وتداعياتها على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والإعلامية، تشكل في الحقيقة خلفية النظرة الى مسألة الإرهاب، الذي بات سيفاً مسلطاً على رقاب الشعوب ومصائر الأنظمة، وتهمة ينبغي على كل متهم أن يدفعها عن نفسه، كي يثبت براءته.

وما شهدناه خلال السنتين المنصرمتين من تدخل عسكري أميركي في أفغانستان وتنصيب "قرضاي" لإدارة البلاد، وغزو عسكري أميركي - بريطاني تحت ستار التحالف لـ "تحرير" العراق، وإعادة الديمقراطية إليه، يندرجان ضمن المشهد الواحد الذي استتبع، بشكل أو بآخر، حلقة جديدة يعيشها عالمنا العربي، وتتمثل في ممارسة إسرائيل إرهاب الدولة بحجة الرد على "إرهاب" الأفراد (=الفلستينيين)، حتى وصل الأمر بها الى التهديد بنفي رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات، والتلميح الى تصفيته جسدياً بغية إنهاء هذا الرمز الفلستيني والعربي المقاوم.

كيف نقرأ هذا الإرهاب الرسمي الإسرائيلي، الذي يتجلبب برداء المصالح العليا الإسرائيلية والمخططات المعدة والمبرمجة تجاه الشعب الفلستيني؟

إن قرار الحكومة الإسرائيلية بطرد الرئيس ياسر عرفات من الأراضي الفلستينية ليس وليد الساعة، فهو يتردد على ألسنة المسؤولين الإسرائيليين منذ الانتفاضة الفلستينية الثانية، وفي كل مرة تجد هذه الحكومة نفسها، نتيجة لضربات الفلستينيين، في مأزق سياسي تجاه شعبها، الذي وعدته، وبدون أي أفق سياسي، بسحق الانتفاضة وجعله يستمتع بالأمن والسلام. وعدا عن تضيق الخناق على عرفات في مقره، فقد وصل الأمر ببعض المسؤولين الإسرائيليين عند حدوث كل عملية فدائية فلستينية الى اعتبار أن طرده الى خارج فلستين لن يكون في مصلحة إسرائيل، وأن الأفضل لها أن تعمل على تصفيته جسدياً. هنا تتداخل الاعتبارات السياسية مع تلك الشخصية للقيادة الإسرائيلية تجاه عرفات، وفي مقدمها شارون. عندما حدث التصويت في مجلس الوزراء الإسرائيلي مساء الخميس 11 أيلول على الطرد "المبدئي" لعرفات، صوت أحد الوزراء الإسرائيليين ضد هذا الطرد، مطالب بديلاً من ذلك بقتل عرفات. كما قال نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي: "إن قتل عرفات من الخيارات المطروحة للحكومة الإسرائيلية". فأيهما إذا أفضل لإسرائيل: عرفات منفياً أم عرفات شهيداً؟ وكيف تقلب إسرائيل خياراتها؟

1- إن طرد عرفات من الأراضي الفلسطينية سيحرر، بلا شك، الرئيس الفلسطيني من أسرته، الذي طال أمده وصمتت عنه الأنظمة العربية وارتضاه المجتمع الدولي. صحيح أن عرفات كان أسير بضعة غرف في مقر محاصر بالدبابات الإسرائيلية، إلا أن إسرائيل لم تستطع أن تخنق حركته السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي. فمن هذا المقر المحاصر، استطاع عرفات أن يناهض سياسة شارون وبوش الساعية الى عزله وإضعافه، وأن يستمر اللاعب والزعيم الأوحده على الساحة الفلسطينية، ويكون بالتالي عقبة في طريق السلام الذي تريد أن تقرضه إسرائيل والولايات المتحدة. كما تمكن من التصدي لمحاولات محمود عباس تحجيم نفوذه. ومن مقره، أثبت عرفات للعالم وللإسرائيليين والأميركيين أنه مفتاح الحلّ لأي "طريق" سلام يختطونه. ولا شك أن عرفات "طليقاً"، أي منفياً، سيكون أشد تأثيراً على الصعيد السياسي الإقليمي أو الدولي. فطرده، كما قال بول، وزير الخارجية الأميركية، سيجعله أكثر تحركاً ويسلط الأضواء عليه، خصوصاً وأنه رئيس منتخب بصورة شرعية وتُعترف بهذه الشرعية دول العالم. وعرفات مشهود له بأنه رجل انتهز الفرص. فهو سيطوف العالم "الحر" بصفته رئيساً شرعياً مطروداً من قبل قوة احتلال تعمل على إذلاله وشعبه. وسوف يستطيع بالتأكيد أن يستقطب تعاطف الكثير من الرأي العام العالمي، فضلاً عن الحكومات الأوروبية، التي ستعتبر أن طرده قد قضى على كل فرص السلام في المنطقة. فهذه الدول، لن تستطيع أن تسكت، على الأقل في العلن وأمام الرأي العام العالمي، عن طرد رئيس دولة شرعي وفق السيناريو الذي يخرج شارون.

2- بعرفات "منفياً" لن تقوم قائمة لشرعية فلسطينية في الأراضي الفلسطينية، ولن يكون بإمكان أية قوة أو سلطة أن تدعي تمثيل الشعب الفلسطيني، أو أن تجرؤ على ذلك، طالما أن عرفات على قيد الحياة رئيساً منتخباً من الشعب الفلسطيني. وسيبقى عرفات في الخارج رمز النضال الفلسطيني، وستتصاعد سمعته لدى الفلسطينيين والعرب والعالم، ولن يتمكن بالتالي أي زعيم فلسطيني من تشكيل حكومة ويتفاوض مع الإسرائيليين. كل هذا سيعني حدوث فراغ سياسي واسع وشامل يصب في مصلحة الحركات الإسلامية تحديداً. وقد تصبح السلطة الشرعية الفلسطينية في "الشارع" تتقاسمها الحركات الإسلامية والمنظمات الأخرى كفتح والشعبية. وقد يؤدي وجود عرفات في الخارج الى إحداث صدمة في الداخل الفلسطيني تسفر عن تقارب شديد بين تلك الحركات والمنظمات، وربما توحيد أنشطتها وسياساتها. وفي ضوء ذلك، ستتصاعد المجابهة ما بين الفلسطينيين المفجوعين بنفي زعيمهم وبين إسرائيل. وبالطبع، فإن عرفات سينتهز هذه الأحداث ليعلن من الخارج قيام "الانتفاضة الفلسطينية الثالثة"، التي ستكون أشد دموية من أية انتفاضة قام بها الشعب الفلسطيني. وسيتمكن عرفات من أن يستقطب بالتالي كل القوى الفلسطينية ضد المشاريع الإسرائيلية لتصفية القضية الفلسطينية.

3- إن قرار طرد عرفات، سيجعل إسرائيل في مأزق. إلى أين يطرد هذا الرجل؟ إسرائيل لا تستطيع أن تضعه في طائرة تنقله الى دولة أوروبية وتفرض ذلك عليها بالقوة. كما لن يكون في وسعها أن ترمي به بمظلة فوق دولة أخرى، أو أن تقذف به بزورق في عرض البحر. ليس أمامها سوى أن تنفيه الى بلد عربي يجاورها في الحدود. وكما سيكون عرفات عبئاً على أية دولة أوروبية "تستضيفه"، كذلك الحال سيكون عبئاً ثقيلاً على أية دولة عربية تطأها قدمه. وفي كل الأحوال، سيصبح في خارج فلسطين كابوساً يردد على صدر إسرائيل ويسلب النوم من عيون رئيس وزرائها ومسؤوليها، ويتسبب بالتالي في إحراج الأنظمة العربية والعواصم الأوروبية في "علاقتها"، سواء تلك مع إسرائيل، أو مع الولايات المتحدة التي توقفت خلال رئاسة بوش عن الاعتراف بعرفات. إن عرفات شهيداً، سيكون أكثر فائدة لإسرائيل منه على قيد الحياة يتنقل بين العواصم العربية والعالمية يؤلبها ضد إرهاب شارون؟ فلماذا؟

أ- ثمة حقد شخصي لشارون على عرفات. ويعود ذلك الى سنوات الاجتياح الإسرائيلي للبنان، عندما فشل شارون يوم كان وزيراً للحرب في تحقيق مأربه في القضاء على عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، وتمكن الزعيم الفلسطيني من الإفلات من مصيدته. ودون أي شك، فشارون الذي كان وراء مذبحه صبرا وشاتيلا، كان يتمنى لو أن عرفات كان من بين ضحاياه. ومن المؤكد، أن طرد شارون من وزارة الدفاع عقب تلك المجازر وبقاء عرفات طليقاً ينتقل بين العواصم العربية، قد زاد من حقد شارون وغيظه عليه، بحيث بات شارون ينتهز الفرصة لتصفيته. ولما كان شارون لا يجرؤ بصفته الرسمية الحالية على التعبير عما يختلج في صدره ويتمناه للزعيم الفلسطيني، فإن الأمنية التي أطلقها أحد الوزراء الإسرائيليين، وهي رؤية عرفات قتيلاً لا مطروداً، لتعبر في الوقت نفسه عما يمني به رئيس الوزراء الإسرائيلي نفسه، وهي قتل عرفات وتمزيقه إرباً لا طرده. فقتل هذا الرمز الفلسطيني له أكثر من معنى فس السياسة العليا الإسرائيلية. لذا، فمن الممكن أن يفتعل الإسرائيليون معركة في "المقاطعة" ويقدمون على قتل عرفات، عن طريق الخطأ، أو الإدعاء أنه قتل بنيران صديقة (=فلسطينية). وقد تستتبع إسرائيل ذلك القيام بترانسفير للفلسطينيين الى الأردن أو الى العراق، وهو ما يتردد بقوة منذ سنوات عديدة.

ب- إن تصفية عرفات على أيدي الإسرائيليين، وفق سيناريو أو بآخر، سيؤدي بالتأكيد الى حدوث زلزال في فلسطين. لكن غياب عرفات عن الساحة الفلسطينية (في حال تمكن الإسرائيليون من تنفيذ مخططهم)، وضغط الدول العربية والدول الأوروبية والولايات المتحدة على القيادات الفلسطينية في الداخل من جهة، وبطش الإسرائيليين وإرهابهم، من جهة أخرى، سيخفف من الاحتقان، وربما يؤدي الى بروز أبو مازن ودحلان "جديدين" أقل صلابة وعرقلة من عرفات. فيتم عندئذ، في حال لم يتم الترانسفير، وضع "خارطة طريق" جديدة وفقاً للشروط الإسرائيلية. من هنا، فمن البديهي ألا تقدم إسرائيل على تنفيذ مخططها ضد عرفات على الفور، بل ستعطي أحمد قريع أو غيره فرصة تشكيل حكومة فلسطينية، كي تتجنب حدوث فراغ سياسي، عند الإقدام على تصفيته، يتيح للحركات الإسلامية بسط سيطرتها على كل الشارع الفلسطيني. إن الطلب من أحمد قريع الاستمرار في سعيه لتشكيل حكومة فلسطينية، يمكن أن يفسر على أنه محاولة لإيجاد حكومة شرعية تسد الفراغ في حالة تغيب عرفات جسدياً، وتكون بالتالي الجهة السياسية الشرعية التي يمكنها التفاوض مع الإسرائيليين في مرحلة ما بعد عرفات.

3 - إن إقدام إسرائيل على تصفية عرفات سوف يكون أقل ضرراً على الأنظمة العربية ودول الاتحاد الأوروبي من طرده إليها. فعرفات طليقاً في العواصم العربية والأوروبية سيسبب إحراجاً لتلك الدول في علاقاتها بالولايات المتحدة وإسرائيل. فإلى أي مدى تستطيع هذه أن تقاوم ضغوط واشنطن واللوبي الإسرائيلي عليها من أجله طرده؟ وبالنسبة الى الدول العربية، التي ستضطر للاعتراف بشرعية عرفات خارج فلسطين، فمن منها ستستقبله وتجعل من عاصمتها "مقاطعة" له. سوريا، التي ذاقت الأمرين من "الأعبييه" و"الفقز من قطار الى آخر"، سوف لن ترحب به بالتأكيد. وعرفات في لبنان، هو كعرفات في سوريا، هذا بالإضافة الى أن الوضع الداخلي اللبناني لن يستطيع احتمال وجوده. يبقى الأردن ومصر. ففي الدولة الأولى، قد يؤدي وجود عرفات الى تعاطف الفلسطينيين الأردنيين معه، وإلى تقوية التيار الرفض لعلاقات عمان بتل أبيب، مما سيسبب إزعاجاً وقلقاً للنظام الأردني قد يهدد المعاهدة الأردنية - الإسرائيلية. إن مصر هي أكثر الدول العربية القادرة على امتصاص تداعيات وجود عرفات عندها. لكنها من جهة أخرى، ليست قادرة على

جعل ساحتها منبراً لعرفات ثائر يطالبها كأقوى دولة عربية، وهي تحافظ في الوقت نفسه على خيط رفيع مع إسرائيل. من هنا، فعدم "استضافة" عرفات هو أفضل للجميع. وفي حال جرت تصفيته على يد الإسرائيليين، فستقوم الدول، عربية وأجنبية، بتطوير ما اعتبرته "خطأ جسيماً" (= طرد إسرائيل لعرفات) الى استنكار مقتله وإطلاق التصريحات الرنانة الشاجبة لذلك. لكن هذا "الاستنكار" لن يستمر طويلاً. فما تلبث هذه الدول أن تضغط على حكومة فلسطينية قائمة، أو من أجل قيام حكومة فلسطينية، بغية العودة مجدداً الى خارطة الطريق، إسرائيلية هذه المرة.

الأرجح أن تقدم إسرائيل على اغتيال عرفات تحت ستار طرده من خلال سيناريو مبارزة بين جنودها وحرس الرئيس الفلسطيني أو الجمهور "الواقي" له. وشارون يحمل "الأوسكار" في إخراج مثل هذه المشاهد الدراماتيكية. وبفضل دعم واشنطن لها، فلن تقع إسرائيل في ورطة دولية. فستكون واشنطن حاضرة هذه المرة أيضاً، كما حدث عقب مجازر جنين عام 2002 على يد الإسرائيليين. لماذا لا تخشى إسرائيل الولايات المتحدة، وتتوقع الدعم منها؟ لأنهما وجهان لعملة إرهابية واحدة: الولايات المتحدة اجتاحت العراق دون غطاء شرعي دولي، دمرت ما دمرت، وقتلت ما قتلت، واغتالت نجلي صدام حسين، ولن تتورع عن الشيء نفسه مع صدام الأب. فما الذي يردع إسرائيل إذا عن القيام باغتيال عرفات، وهي سيدة الإرهاب في العالم والضرب بعرض الحائط بالقوانين والقرارات الدولية؟ إن قيام اضطرابات في فلسطين تعقب تصفية عرفات تفوق ما حصل حتى الآن، سيجعل المجتمع الدولي يضغط في اتجاه نسيان فعلة إسرائيل، وإعادة الهدوء والسلام الى فلسطين. فيكون شارون قد نجا بذلك بفعلته ومن مأزق دولي، كما حصل في صبرا وشاتيلا وجنين. فهل يتنبه الى ما يحاك ضدهم، والعرب الى حظ الفلسطينيين العاثر بوجود أنظمة عربية استقالت من عروبتهما؟ وهل سيبقى العالم صامتاً وغائباً ومكبلاً يعيش أبداً تحت هاجس 11 أيلول 2001 تاركاً إسرائيل تمارس إرهابها على الشعب الفلسطيني وسلطته الشرعية؟